

المشكلة التربوية في الخطاب المسجدي بين العيوب الذاتية والحوائق الموضوعية

بقلم الأستاذ: سعيد معول

بفضل فهمهم لرسالة ربهم، وبفضل عدلهم وإحسانهم في تنفيذ تعاليم دينهم إلى ربيع مزهر، كثر ثمره وأبنع زهره وورف ظله وعم خيره.

وإذا كان الخطاب المسجدي - على كل حال - يحشد كثيرا من المعلومات الدينية ويسوق كثيرا من معانيه، فإنه يفتقر كثيرا إلى المؤهلات التربوية التي ترشحه ليكون قادرا على توجيه سلوك الفرد والمجتمع نحو مقاصد رسالة الإسلام الواضحة وغايتها المثلى، ويصوغ المثل العليا التي تمثل إحساسا مشتركا بين سائر أفراد المجتمع ومؤسساته، ويزرع في القلوب العواطف النبيلة التي تجعل من المسلم إنسانا قادرا على صياغة شبكة العلاقات الاجتماعية التي تضمن

لا يمكن للمسلم العاقل أن يكون مطمئنا ولا مستريحا لواقع الخطاب المسجدي عندنا أو عند غيرنا من الشعوب الإسلامية، ولا إلى قدرات القائمين عليه في مواجهة تحديات الحاضر والمستقبل ومستحدثات الزمان والمكان المتسارعة والمتلاحقة.

هذا الخطاب - في تقديري المتواضع - لا يزال دون المستوى المطلوب الذي يؤهل لتقديم صورة كاملة واضحة ودقيقة عن الإسلام كما وردت في القرآن الكريم، وكما بينته السنة النبوية المطهرة الشارحة والمبينة لهذا القرآن وكما جال به الأسلاف العظام في أرجاء هذه المعمورة وصالوا، فامتألت بأعمالهم وآثارهم الأرجاء التي وصلوها، فتحولت الحياة

الذاتية ليفهم العالم المحيط به، ومن ثم يتفق علماء التربية المعاصرة على ضرورة توجيه اهتمام منظومات التربية والتعليم والتكوين نحو تفتيق هذه القدرات والتحكم في توظيفها، ولن يكون ذلك ممكناً إلا إذا كان التعليم الموجه لهذا الإنسان يصب في هذا الاتجاه، ومن ثم فإن المعلومة أو المعرفة التي لا يحتاجها الإنسان لتوظيفها في حياته الخاصة أو العامة ينبغي الاستغناء عنها حتى لا تصبح عائقاً أمام تقدمه نحو الأمام ورفقه نحو الأعلى وسموه نحو الكمال البشري الذي يجب أن يبقى الغاية النهائية لكل منظومات التربية والتعليم والتكوين.

إن الخطاب المسجدي الذي هو وسيلتنا لتعليم الناس وتوجيههم وإرشادهم ينبغي أن يكون قادراً على تمكين الدين الحق من العقول وترسيخ الدين الصحيح في النفوس، لتشفى هذه النفوس من عللها وأسقامها وأمراضها فيتمتع الإنسان بعقل رصين، وضمير حي، وقلب سليم، ذلك أن الكم الهائل من المعارف، والثروة الطائلة من العلوم و النظريات

الحياة الكريمة لكل الناس، وتمكنهم من استمداد قوتهم وعناصر بقائهم من الماضي المشرق ومن رسم الطريق نحو المستقبل الوضاء تملأه العزة و الكرامة نحو تحقيق الهدف الذي ينبغي أن نكرس له وجودنا ونسخر له جهودنا.

إن الإسلام حينما جاء، دعا الإنسان إلى أن يشعر بقيمة ما أودعه الله تعالى فيه من قدرات عقلية ودعاه إلى توظيفها ليكون قادراً على فهم عالم نفسه وعالم الطبيعة المحيط به - أو عالم الشهادة كما يسميه القرآن الكريم - وأن يكون قادراً على فهم سنن الله في خلقه، وحكمه في من مضى من الأمم والحضارات، هذه السنن التي تسري على الجميع بدون محاباة ولا تمييز، ويبقى أعظم فقه يمكن أن يصل إليه عقل الإنسان هو فهم هذه السنن وفقهها. ويلتقي الإسلام في هذه النقطة بالذات مع ما تدعو إليه التربية الحديثة حينما تكون بعيدة عن الألوان المجتمعية والبيئية التي في نهاية المطاف ما هي إلا دعوة الإنسان إلى توظيف كل قدراته العقلية وإمكاناته

والغيبية عموماً، بيد أنهم لم يجيبوا الناس ببساطة ووضوح ولم يوجهوهم إلى ما يرفعهم إلى حضرة الله تعالى، مع أن ذلك أجدى للإسلام وأهله من تلك البحوث العقيمة في الذات والصفات، وما استتبع ذلك من العداوات والخصومات بين الناس، وما تسببت فيه من ضياع لجهود الأمة الفردية والجماعية عبر العصور. نعم لقد عمل كثير من علمائنا في هذا الوطن بالذات على سدّ أبواب الشر، ومناذ الفتنة، فكانوا يجمعون بين سعة العلم وصدق الصلة بالله والأجيال التي كانت تأخذ العلم عنهم استفادت منهم نضارة القلب المتجه إلى الله تعالى وإشراقة الفقه الذي يضيء الطريق عليه، ولا غرو في ذلك فقد كانوا يجمعون بين العلم والتربية، وبين الفقه والتزكية وبين الآخرة والدنيا.

ومن هنا يتضح جلياً أنّ مسؤولية المشرفين على الخطاب المسجدي هي أن يأخذوا على عاتقهم معالجة هذا الخلل، وإكمال هذا النقص الذي كان سبباً في الفراغ الروحي الذي تعاني منه البشرية،

لن يكون مجدياً إذا صاحبه الفقر المدقع في المشاعر النبيلة، وغاب عنه السلوك الكريم القويم. والسؤال الذي يفرض علينا نفسه هنا بالحاح هو: كيف يتمكن الخطاب المسجدي من تحقيق هذا التدين الصحيح؟ أو كيف يتمكن القارئ عليه من توجيهه الوجهة الصحيحة التي تؤدي إلى بلوغ المرمى والمقصد والغاية؟ لا يكفي أبداً الاغتراف من التراث بدون غربلة ولا تصفية، وتقديمه هكذا للناس اليوم وهم يعيشون ظروفًا غير ظروف الأجداد، ويواجهون تحديات غير تحديات الأئمة القريب أو البعيد. إن بعض فقهاءنا الذين كتبوا فصولاً وألغوا مجلدات في غسل الأطراف أو غيرها من أبواب الفقه لم يهتموا كثيراً بجانب التربية والتزكية ليضبطوه بأدلتهم الفقهية ليتوافقوا بذلك مع هداية القرآن المجيد الذي بينت آياته المحكمات أن الغرض الهدائي هو الغاية المنشودة من وراء كل تشريع، وما يقال عن بعض فقهاءنا يسري حكمه على كثير من علماء الكلام الذين عقدوا الفصول الخطيرة وحرروا القرايطيس العريضة في الشؤون الإلهية

ذلك أن الدين الحق الذي تهفو إليه النفس السوية ليس جملة معارف فقط يصدقها العقل بعد أن يستبين صحتها، ولكنه إلى جانب ذلك إحساس بالوجود الإلهي الخالق الذي يروي ظمأ الروح للفوز برضا الله المطلق، إلى التسامي في معارج الكمال التي لا حد لها ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ يونس: ٢٦ ﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ ق: ٣٥. إن شيوخ الزوايا عليهم الرحمة والغفران عملوا كثيرا في هذا المضمار، حبذا لو استخلصنا عملهم ونقيناها وأزلنا عنه الغبار والصدأ لننفع به أنفسنا وننفع به الآخرين. إننا اليوم أكثر من أي وقت مضى في حاجة إلى خطاب مسجدي تطبق فيه طرائق تحويل العلوم الدينية والأحكام الفقهية النظرية إلى خلق لازم، وعمل دائم، وأسلوب في الحياة معروف الهدف والمقصد، ومن ثم فإنني أنكر طريقة التعامل مع التراث الذي يكتفي صاحبه بتعلم

فقه الفروع وتعليمها، ولكنني أرى أن ذلك كله ينبغي أن يوجه إلى القيام بوظيفة التربية القلبية والإيقاظ العاطفي والتهديب النفسي، لتمكين هذا المتعلم أو هذا المصلي من الرقي في معارج الكمال ومراتب السمو اللائق بالمنزلة الرفيعة التي حبا الله تعالى بها الإنسان، والإسلام في جوهره إنما فرض أحكامه من أجل تحقيق هذه الأهداف المنشودة، ولا يمكن للإسلام أبدا أن ينتفع بالذين يتعمقون في دراسة شتى علومه، واستحضار أقوال علمائه في كل العصور إذا كانت قلوبهم خواء ونفوسهم مريضة وبواطنهم لا تتحرك فيها إلا الغرائز البدائية التي تحركها مطالب الدنيا البسيطة، أوكد فأقول: لا يمكن لهذا الدين أن ينتفع بعلوم هؤلاء ولا بأقوالهم إلا أن تحيا قلوبهم بذكر الله وتمتليء نفوسهم بخشيته، وتقيد أفعالهم بحدوده، لنسأل أنفسنا بصراحة هل حقيقة يكفي مضمون الخطاب المسجدي في عموم لغرس الإيمان بالله واليوم الآخر في النفوس، ويملا القلوب بالطمأنينة والسكينة والرضا بما جاء

بمعناها السلبي، وجعل الناس من مختلف شعوب المعمورة يلحظون سناء قلوبهم ورقة طباعهم واستقامة سلوكهم وصدق أقوالهم وأفعالهم وإخلاص نياتهم لله ورسوله، مما جعلهم يقبلون على دين الله أفواجا بقلوب راضية ونفوس زكية.

ثم نسأل أنفسنا مرة أخرى: ما مصدر هذا التخلف في فقه سنن الله في كونه، وفقه النفس والطبيعة وقوانينها واستخراج دفائنها؟ وما مصدر هذا القصور في فهم التاريخ وسيرة الأمم السابقة للوقوف على عوامل ازدهارها وأسباب هلاكها واندثارها وفي العجز على الوقوف على سنن الله في التاريخ والاجتماع والحضارة؟

ثم الخطاب المسجدي في عمومهِ يساعد على فهم الظواهر النفسية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي نزل القرآن المجيد ليعالجها، ويجعل المسلم الذي يوجه إليه قادر على ملاحظة أسبابها وإمكانية تكرارها في كل وقت وأوان، مع دوام صلاحية علاج القرآن الكريم لها باعتباره علاجا إلهيا أزليا

عن الله ورسوله ويمكن من وضع أسس ثابتة مكيئة تقام عليها التربية الكاملة؟ وهل نجح هذا الخطاب في ربط سلوك المستمعين إليه من المسلمين في كل المواقع وفي مختلف المناسبات بديناميكية اجتماعية تضامنية خيرية، كما تربط العربات برأس القاطرة الدافعة؟

ومما لاشك فيه أن افتقار الخطاب المسجدي إلى هذه الجاذبية التي تشد إليه حركات الناس وسكناتهم هو السبب في إخلاء الجو لسائر المؤثرات الأخرى والموجهات المختلفة، وبالتالي فتح المجال لمختلف الأهواء بل الشهوات التي تكاد تحول أوساطنا إلى مرتع للتدين المغشوش الذي يقضي إلى الهزيمة، ويرسخ التخلف ويعيش أهل الضمائر والإخلاص معه في حرج.

وهل تمكن الأسلاف الكرام من نشر الإسلام في مختلف أرجاء المعمورة وبين مختلف الشعوب والأمم إلا بذلك اليقين الذي ملأ نفوسهم وقلوبهم بالخير والرضا، فجعلهم يتعدون عن الشبهات والدنايا، ويرفعون عن مطالب الدنيا

من حقائق عقيدية أو تشريعية ما يزال يُعرضُ العرض المنفر، ويُقدّم التقديم القاصر أو يفسر التفسير الناقص الذي في كثير من الأحيان لا يسمن ولا يغني من جوع.

ولعل هذا يكون هو السر في اضطراب أحوال هذا الخطاب خلال العقود الأخيرة، ولعله الدافع الذي كان وراء طرحي له كقضية في هذه الدراسة.

فما هي إذن الأسباب؟ وما هون العلاج؟

سنحاول استعراض بعض الأسباب باختصار على أن نترك العلاج إلى وقت آخر، لأن الوقوف على الأسباب قد يسهل التحكم في النتائج، ويمكن من الإسراع في إبطال مفعولها أو على الأقل التخفيف من أثارها ووطأتها. فما هي هذه الأسباب باختصار؟

أولاً: انعدام المنهاج وضعف المنهجية:

إنّ المنهاج الذي نعني به النسق التعليمي والتوجيهي الشامل منعدم في مساجدنا، وما يقدم في كل مسجد

لمستحدثات البشر ومشكلاتهم، لأن ما استحدثه البشر فوق هذه الأرض من علل في القديم هو الذي يستحدثونه اليوم ويستحدثونه غداً؟

إنّ الطريقة التي يعالج بها الخطاب المسجدي مختلف القضايا ويواجه بها المستجدات تحتوي على نقائص كثرة، ومردّد ذلك -لا شك- لأمرين وهما: إمّا لأنّ القائمين عليه غفلوا عن أمور كثيرة أو جهلوا، وكان يجب أن يحيطوا بها علماً، وإمّا أن علمهم بكثير هذه القضايا يحتاج إلى المراجعة ويفتقر إلى التجديد والتحيين ليكون قادراً على مسيرة الواقع ومتغيراته ويواجه المستقبل وتحدياته، ولن يكون له إلا إذا تمكن من استعادة العناصر الضرورية التي لا بد منها لتكوين الغذاء العقلي والروحي المطلوب للجماهير التي يقدم لها، ويتعد عن كل التعقيدات والتراكمات التي أثقلته عبر القرون، والتي ابتعدت به عن منبعه الصافي وحولته عن مجراه الطبيعي. ولا بدّ أن أسرع هنا لأشير إلى أنّ ما في هذا الخطاب المسجدي

الظروف الملائمة التي تساعد على تفتيق مواهبهم، وتنمي عقولهم وتوجه سلوكهم.

ذلك أنه لا يمكن لإمام أن يؤدي رسالته بنجاح إلا إذا كان الناس الذين يتوجه إليهم من أصحاب النفوس الصحيحة الخالية من كل الأمراض والعاهات التي تصيب السلوك والمشاعر وما أكثر هذه العاهات في أوساط الناس في عالم اليوم بفعل عوامل معقدة وبفعل مؤثرات غاب عن ساحتها كثير من قيم الإسلام بسبب ضعف المسلمين في كل الميادين وتسلم غيرهم من البشر قيادة العالم اليوم...

ثانياً: الميل إلى التقليد والعزوف عن التجديد:

إنّ الخطاب المسجدي الذي نبحت عنه، ونريده في مساجدنا هو الذي تتهياً القدرة لأصحابه أو القائمين عليه على الجمع بين صحة العلم وصدق المعرفة وحكمة العلاج، ونحن جميعاً أيّها الإخوة نعرف أن في حياتنا اليوم وفي تراثنا المتنوع ركاباً من البدع الموروثة

يتوقف على اجتهاد الإمام القائم عليه قد تتسع مداركه وهو قليل، وقد تضيق وتضمر، ويظهر عليه القصور ومن ثم يصبح هذا الخطاب لا تتقدم به دنيا، ولا يتسقيم به سلوك، ولا تطمئن له نفس أو ينتصر به دين. كم من قائم عليه يخضع خطابه لمنهاج واضح المعالم له غايات واضحة، ومقاصد مضبوطة وأهداف مرسومة، وطريقة في تعليم الدين معلومة ووسائل كافية؟ وكم من قائم عليه يخضع عمله لتقييم تربوي هادف يحاسب نفسه بحسب النتائج المحصل عليها، ويشرع في التقويم من أجل تشخيص النقائص للعمل على تفاديها ومعرفة نقاط القوة للعمل على دعمها، ويقيس الأهداف المحققة من أجل إدخال مختلف التحسينات والتصويبات الضرورية لبلوغ المرامي والمقاصد؟ وكم من هؤلاء القائمين على الخطاب المسجدي يتحسس وقع خطابه في أوساط الذين يوجه إليهم خاصة وفي أوساط المجتمع عموماً، ليقوم بتكاليف التربية اللازمة لهم وتحسين تعليمهم وإرشادهم وتهيئة

والخرافات التي ما أنزل الله بها من سلطان، بل في بعض الأحيان تراث أنتجته الأهواء ومختلف الملل والنحل التي عرفتھا المجتمعات الإسلامية حسب تعاقبها في الزمن وتجاورها أو تباعدها في المكان، هذه الأمور التي يفهمها الكثيرون منا اليوم على أنها هي الدين، وما هي كذلك لا في القليل ولا في الكثير، وتعرف كذلك أن هناك طائفة ضخمة من آراء الرجال وأفكارهم ومذاهبهم ومشاربهم، قد تركها الزمن ولكن أريد لها هكذا أن تبقى لاصقة بكتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ طالبة الخلود معهما، ويقدمها خطابنا على أنها الدين أو التفسير الصحيح له. لا شك أن هذه الآراء والمذاهب تجمع بين الخطأ والصواب، ولكن تقديمها للمسلمين من خلال الخطاب المسجدي دون تمحيص ودون غربلة، قصور ما أنزل الله به من سلطان، والعاقلون من المسلمين اليوم والمخلصون من علمائهم يعلمون أن الشلل الجزئي الذي أصاب العقل الإسلامي عبر قرون عديدة وفي كثير

من مناحي الحياة، قد يتطور إلى شلل عام يعوق للمنظومة الفكرية لدينا على أن يكون للخطاب المسجدي في ذلك الدور الأساس.

إن ما نحن عليه اليوم ما هو إلا نتيجة لذلك الموت الأدبي والضعف المادي الذي أفقد الأمة مناعتها وأفقدھا القدرة على التجديد والتوحيد والإبداع، كما أفقدھا القدرة على مواجهة المشاكل والتحديات ومسيرة التغيرات والتحولات فكان من نتيجة ذلك أن لاقتنا كثير من الهزائم الكاسحة والانكسارات التي يصعب جبرھا اجتاحت أوطان المسلمين من أقصاها إلى أدناها. ولا بد أن يتفق اليوم القائمون على الخطاب المسجدي على ضرورة تجريد العلوم الإسلامية من الأوهام والخرافات ومن الخلافات العقيمة، والفلسفات المقوضه للبناء الاجتماعي المتين والمتنافية مع تعاليم الإسلام البينة، الواضحة، البسيطة التي تأمر أتباعها بالعمل والإخلاص فيه والإتيان له وتأمرهم بصدق النية وإخلاصها لله

تاريخية كثيرة، وفي هذا الوقت بالذات أخذ غيرنا يصعد ويلحق، ويسبق، ويعلو وينجز وينظم، ويتقدم ... وهكذا...

ولا أريد أن يفهم من كلامي بأنني أريد أن أنتقص من جهود أوائلنا لأن فضلهم علينا لعظيم، ونحن مدعوون دوما للاستفادة منهم، ولكن أريد أن أتبّه إلى غفلتنا وغفوتنا ونومنا وجمودنا واعتمادنا على زاد الأوائل في كل شيء.

إنني أعتقد جازما أنهم لو وجدوا اليوم أحياء بيننا ما قبلوا منا هذا المسلك، ولدفعونا إلى التجديد والإبداع وإلى البحث والانتفاع، وإلى الاختيار والانتقاء، لنعيد للعلوم الإسلامية كافة نضارتها وحيويتها وقدرتها على حل معضلات الإنسان ومشكلاته.

إنّ تفسير القرآن غير القرآن - إذ القرآن المجيد كلام الله لا ريب فيه هدى للعالمين - أما التفسير فهو جهد المفسر أو العالم الذي يحاول تبيان معاني الكتاب الكريم، فقد يصيب في اجتهاده أو تفسيره وقد يخطئ.

والفقه الإسلامي الذي - مع الأسف -

الخالق. لابدّ إذن من تجريد هذه العلوم من كل هذا ومن كل ما أدخل عليها وهو ليس منها، ولكنه تمّ في إطار سياق تاريخي معروف، وبذلك فقط يصفو الجو للحق المبين ليرسم طريق الهدى والخير، والنجاة.

ثالثا: عدم القدرة على الانتقاء من الموروث العلمي والثقافي:

لقد ظلت الثقافة الإسلامية بكل فروعها زمنا طويلا وأمدا بعيدا أجدر الثقافات بالحياة، ومن ثم كان الناس جميعا على اختلاف أجناسهم وألوانهم وطبقاتهم يقبلون عليها بحفاوة، لما لاحظوه فيها من القدرة على بناء الحياة الإنسانية على أسس ركيّة، وعلى تجديد هذه الحياة وتنظيمها وجعلها قادرة على مسايرة تطور العصور وتعاقب الأزمنة، وتنوع الأمكنة ولكن بعد ذلك أتى علينا حين من الدهر فقدت الأمة الإسلامية خصائص القدرة على التحليق وخصائص القيادة الرشيدة ومواصفات الريادة الحكيمة، فأخذنا نهبط رويدا، رويدا، بل ارتطمنا بالأرض عبر محطات

جمد لعدة قرون، ويحاول من حين لآخر أن يستيقظ من غفوته، بل أن ينهض من رقدته الطويلة يجب أن تبذل الجهود لتعود له حيويته، وتعود إليه جذوته ونضارته وإشعاعه، وعلم الحديث يحتاج في عصرنا إلى إحياء، وتجديد من خلال إحياء النقد البناء، والتمحيص الدقيق، على شرط أن يقام المشروع - بالإضافة إلى الأسس القديمة - على أسس جديدة في إطار منظومة علمية وفكرية شاملة تنظر إلى هذه العلوم نظرة كلية تكاملية متفادية النظرة التجزيئية التي كثيرا ما شوهت هذه العلوم، وقطعت أوصالها وهكذا - وبنفس المنهج - في سائر العلوم الأخرى.

وخلاصة القول و محصلته، فإنه من غير المقبول ولا المعقول أن يبقى خطابنا المسجدي يغترف ويتغذى هكذا من كل الموروث العلمي والثقافي دون انتقاء، ولا تمحيص ولا غربلة، ولعل من أهم المشكلات التربوية في هذا الخطاب اليوم هو الميل إلى هذه الرتابة القتاتلة، وشغل أذهان الناس، وحشد عقولهم

بكل ما أنتجته العصور السابقة سواء كانت الحياة ما تزال تدب فيه وما يزال يصلح للعلاج، إن الأيام تفرض علينا تجديده وتحيينه، أو وضع بعضه البسطة في المتحف.

رابعا : عزوف القائمين على الخطاب المسجدي عن علوم الطبيعة والعلوم الإنسانية:

إننا نتساءل والحيرة تملأ أفئدتنا هل يقبل في الإسلام، ومن منظور القرآن الكريم أن تفصل العلوم الطبيعية والعلوم الاجتماعية والإنسانية عن الدين وكأن لكل منهما كيانه المستقل في نظام المعرفة؟ كيف نفصل العلوم الطبيعية عن الخطاب المسجدي؟ وقد جعل القرآن نفسه هذه العلوم (أي معرفة آيات في كونه وفي خلقه) سبيلاً إلى الإيمان بالله الواحد ورفض الشرك ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝٢٠﴾ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿الذاريات: ٢٠-٢١﴾ وكيف يعقل فصل العلوم الاجتماعية عن الخطاب المسجدي، وقد جعل القرآن الكريم سلوك الإنسان وعلاقاته المختلفة بالمكان والزمان الذي يعيش

خلقه، وأن يكشف عن معرفة النفس وأحوالها ومعرفة حياة الشعوب والأمم، وأن يطلعنا على عوامل ازدهارها، وعوامل اندثارها، لأن ذلك كله يسير وفق سنن كونية يسري مفعولها على الجميع دون تمييز أو محاباة؟ لا شك أن معرفة ذلك كله جزء لا يتجزأ من الدين. إن تجزئة المعرفة لم ينشأ أبداً في المجتمعات الإسلامية في عصور ازدهارها لأن ذلك ببساطة شيء لم يدع إليه كتاب الله ولا سنة رسوله ﷺ، وإنما هو مسلك ونحو أخذته الحضارة الغربية التي فصلت بين الدين والعلم، لأنها حضارة لا يقتضي الدين فيها معرفة عالم الطبيعة أو عالم الشهادة، ولا يقتضي معرفة النفس على حقيقتها كأساس لمعرفة الدين، ولا يقتضي الدين توظيف هذه المعرفة كأساس للإيمان الكامل، ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْآيِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ (١٧) ﴿وَالِى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ﴾ (١٨) ﴿وَالِى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ﴾ (١٩) ﴿وَالِى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ (الغاشية: ١٧ - ٢٠).

فيه موضوعاً لأحكام تشريعاته المختلفة، كما جعل القرآن الإنسان مسؤولاً ومسئولية كاملة عن كل العلاقات والمؤسسات التي ينشئها.

وكيف يقبل فصل العلوم الإنسانية عن الخطاب المسجدي، وقد جعل القرآن معرفة النفس ومعرفة أحوالها ومعرفة تجارب الشعوب والأمم مرجع الإنسان في التبصر بمصيره، ومصير الشعوب والأمم في اتباع هذا المنهج أو ذاك في الحياة؟

ألا ينبغي أن يكون القائمون على الخطاب المسجدي مُلمِّين بهذه العلوم والمعارف جميعها في إطار الرؤية الشاملة والحل الناجع والمنهج القويم الذي يرسمه القرآن حتى يتمكن المسلم من وضع نفسه في موقع يمكنه من فهم غايات الدين ومقاصده في تربية الإنسان وتوجيهه؟

ألا يكون من أوجب واجبات الخطاب المسجدي أن يعمل على تقديم الحقيقة كما تظهر في آيات الله تعالى وفي

إذا كان متعذراً على الغرب أن يجمع بين العلم والأخلاق والدين بسبب الهوة الطويلة التي اصطنعها بين العلم والدين عندهم وبالتالي تعذر عليهم توظيف العلم لفقه الدين، ومن ثم عاشوا في عوالم متناقضة، وفي تمزق وضبابية وتوتر داخلي في النفس، هذا التمزق الذي يحاولون دوماً أن يغلفوه بمهادنة مصطنعة كذلك، تعودوا عليها وعاشوا معها وفيها، فما عذرنا نحن - المسلمين - الذين نتلو آيات القرآن المجيد، والتي أولاها تأمرنا صراحة بالقراءة والكتابة وطلب العلم والمعرفة ﴿أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ العلق: ١.

خامساً: النظرة التجزئية لنصوص الشريعة:

إنّ المتتبع للطريقة التي تعرض بها مختلف العلوم الإسلامية في المساجد يلاحظ أن القضايا الدينية عموماً والأحكام الفقهية خصوصاً تقدم كأنها مفردات مفككة، أو أجزاء منفصلة، أو أبواب منعزلة، فهناك باب للنكاح مثلاً

وآخر للطلاق والنفقة والإيلاء والبيوع وهكذا. هذه الأجزاء كلها يجمعها عنوان واحد في الواقع وهو ما يسمى عندنا نظام الأسرة. ولو نظرنا إلى جميع النصوص الشرعية المتعلقة بهذا العنوان نظرة كلية جامعة، لظهرت لنا جلياً هداية الإسلام ومقاصده المتعلقة به، وسيختفي كثير من اللغو المتداول، والكلام الزائد، الذي لا طائل من ورائه، ولا يخفى على أي عاقل الفرق الكبير بين عرض السيارة مثلاً في شكلها العام، وعرضها كأجهزة، وقطع، ومقاعد مفصولة، أو النظر إلى جسم الإنسان في تناسقه العام أو تصوّره كأجزاء مفصولة. إن عرض أحكام الشريعة أجزاء مفصولة متناثرة هو الذي جعل الناس ينظرون إلى الطلاق مثلاً على أنه مشكلة في حين جعله الله حلاً لمشكلة قائمة، وهذه المشكلة تتمثل في فتور العلاقة الزوجية أو اختلالها والتي يستحيل معها بقاء هذه العلاقة لما في ذلك من الأضرار التي تلحق بمقاصد الشريعة في سنة الزواج. ولست أدري من أين تسرب كثير من الكلام الفارغ

بن قيس لا أعيب عليه لا في خلق ولا دين، ولكني أكره الكفر في الإسلام" ولنتأمل بعد ذلك كيف أن الرسول ﷺ احترام عاطفة هذه الزوجة، ولنتأمل مرة ثانية هذا الصحابي الجليل الذي جاء إلى النبي ﷺ وهو خاضع لأمر الله تعالى ومقتنع بامضاء هذا العقد بنفس الرضا الذي وقع به عقد الزواج قبل ذلك بقليل أو كثير.

إن الإحسان الذي قيد به التسريح في الآية الكريمة لا يمكن أن يتحقق إلا إذا اقتنع الطرفان بضرورة الانفصال تمكينا لكل واحد منهما من إعادة التجربة وتجديد المحاولة ﴿وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ البقرة: ٢٢٧. فلنقرأ الآيات المتعلقة بالموضوع في سورة البقرة، ولنتأمل كيف جاءت في وحدة موضوعية يصعب معها فصل أجزائها بعضها عن بعض يقول الله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ يُؤَلُّونَ مِن نِّسَائِهِمْ رَبْصٌ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ فَإِنْ فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (٢٢٦) وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٢٧) وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ

إلى كتب فقهننا من مثل قولهم " أنت طالق نصف طلقة، أو إن ذهبت إلى بيت أبيك فأنت طالق"، أو غير ذلك، في حين الطلاق في الواقع مثلما تتجلى مقاصده من القرآن ومن السنة النبوية، هو سبيل لتمكين كل طرف من تجديد محاولات النجاح في إقامة مشروع الزواج على الأسس السليمة التي ينبغي أن تؤسس عليها الأسرة المسلمة يقول تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ الروم: ٢١.

إن المتأمل في الحديث الصحيح المتعلق بزوجة الصحابي ثابت بن قيس رضي الله تبارك وتعالى عنهما يدرك معنى الطلاق في الإسلام، ويدرك ما معنى قوله تعالى: ﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانٍ فَإِمْسَاكُكُمْ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحُكُمْ بِإِحْسَانٍ﴾ البقرة: ٢٢٩. لنتأمل حالة هذين الزوجين الكريمين كيف حضرا معا إلى الرسول ﷺ، وكيف تحدثت هذه الزوجة بدون كبت ولا عقدة قائلة: "يا رسول الله إن ثابتا

إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيُعَوِّلْنَهُنَّ أَصْحَابَ بَرٍّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٨﴾ الطَّلَاقُ مَرَّتَانٍ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَنٍ وَلَا يَحِلُّ لَكُمُ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿البقرة: ٢٢٦ - ٢٢٩﴾

فلنتأمل جيدا كيف تتعاضد ألفاظ هذه الآيات لإبراز الصورة الرائعة لأحكام القرآن المجيد، ولإبراز العلاقة الزوجية في الشريعة الإسلامية التي لا يجوز بأي من الأحوال تدنيس قداستها، وتحت أي ذريعة كانت، وإنما يتعين على المسلم في كل ذلك أن يلتزم حدود الله وأن يتحلى بالأخلاق الحميدة حتى في المواقف الحرجة، ويتصرف إزاءها بحكمة العقلاء وإيمان الخلصاء، فالإيلاء لم يشرع من أجل عقوبة الزوجة كما يقول كثير من فقهاءنا، وإنما هو رخصة

شرعية من أجل تمكين الزوجين للعمل على تجديد العلاقة الزوجية وتجويدها وإيقاد جذوتها، لأن هذه العلاقة المقدسة يتعين على طرفيها دوما العمل على تجديدها ومقاومة تبددها، وعلى بعث الحياة فيها ومقاومة الفتور والرتابة حتى لا تتسرب إليها، والطلاق ليس طريقا لنبد الزوجة أو طردها وعزلها اجتماعيا، وليس سلاحا في يد الزوج يهدد به الطرف الآخر كلما طاب له ذلك، وإنما هو طريق لكل واحد منهما ووسيلة لتمكينه من تقوية العلاقة الزوجية التي يتهددها الوهن، أو تمكينه من تجديد المحاولة مع الغير إذا استحالَت العشرة في التجربة الأولى، لأن ما ينتظره الدين من الأزواج أشرف من أن يؤسس على مثل هذه العلاقة، وهكذا ... وما يقال في هذا الموضوع يمكن أن يقال في كل الموضوعات الأخرى، في البيوع ومختلف العقود، وفي الإشهاد والأفضية وغيرها. إن الرضا الشرعي المقصود مثلا في قوله تعالى: ﴿يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ

الكريمة اللائقة بمنزلة الإنسان لا تبنيها مثل هذه الأمور التي من أشدها وأصعبها كثرة اللغو والخصام والجدال، ولعل من أجل ذلك كان من مواصفات الجنة أن المؤمنين الداخلين إليها لا يسمعون فيها لغوا ولا تأثيما.

سادسا: الاختلال المادي في المجتمع:

من العوائق الموضوعية الخطيرة التي تعيق الخطاب المسجدي وتمنعه من الوصول إلى تحقيق غاياته ومقاصده اختلال التوازن المادي في المجتمع، هذا المرض الذي عانت وما تزال تعاني منه المجتمعات البشرية كثيرا. والمجتمع حينما يختل توازنه المادي يختل توازنه الأدبي والمعنوي بحكم الضرورة. وحينما تغلغل البصر في بعثات المرسلين لمختلف الأقوام تلحظ أن هذه الظاهرة كانت دوماً تمثل حجر عثرة أمام جهودهم وتفانيهم في تبليغ ما أمروا بتبليغه للناس من هداية رب العالمين.

والقرآن كثيرا ما قصّ علينا شكاوي الأنبياء والمرسلين وأنين الخطاب الديني عموماً تحت وطأة الاختلال، فهذا

إِلَّا أَنْ تَكُونَ بِحَكْرَةٍ عَنْ تَرَاضٍ مِّنْكُمْ ﴿النساء: ٢٩﴾ لا يتحقق إلا إذا كانت القيم المتبادلة بين الناس في الأسواق متساوية، ولا يجوز التفاوت بينها إلا بالقدر الذي يتفاوتون فيه في الجهود التي يبذلها كل واحد منهم، لأن علاقات البشر فيما بينهم ما هي في آخر المطاف إلا سوق كبيرة يلتقي على صعيدها كل الناس ليتعارفوا ويتبادلوا المنافع والمعارف، فهذا يعرض سلعة وآخر فكرة وثالث خدمة وهكذا... وكل النصوص الشرعية الواردة في هذا الموضوع كلها تتعاضد لمنع تحول المعاملات بين الناس إلى وسيلة استحواذ على جهود الغير بغير حق وعلى استحواذ عرقهم بغير وجه مشروع، هكذا ينبغي أن تكون نظرنا للنصوص الشرعية، فهي تشكل وحدة موضوعية لها مقاصد واحدة، وهي منع الظلم والعدوان ومحاربة الاستغلال ومقاومة الاختلال وإقامة الميزان، وبهذه النظرة تتجنب كثيرا من الحيل والالتواءات ونستريح من كثير من اللغو واللغو، لأن الحياة

فالنبي داود عليه السلام الذي آتاه الله خيره العميم المتمثل في الزبور والذي كان إذا قرأه كانت الجبال تردّد معه والطيور، إلّا تلك الفئة التي كانت تترجم قافلة العصيان مدافعة عن مصالحها الضيقة كانت تمرّ عليه وتقول ساخرة "على من تقرأ زبورك يا داود" فمثل هذه الأمثال هنا من بنات الواقع الذي.

و المرسلون إنما بعثوا ليعيدوا التوازن لحياة البشر فوق هذه الأرض، و يغيروا هذا الواقع المختل الذي يستحيل مع بقائه بناء حياة كريمة تليق بكرامة الإنسان ومقامه ودرجته عند الله ربّ العالمين.

إنّ الاختلال المادي إذا ساد في أي مجتمع أفضى إلى ظهور ما سماه القرآن بالترف الممقوت، وكلما استفحلت هذه الظاهرة إلّا و صعبت من مهمة المصلحين، بل تكاد تجزم بأن أية دعوة إصلاحية يكون من العسير على أصحابها النجاح في مهمتهم ما لم يسارعوا في علاجها والقضاء عليها ﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أَمَةٍ وَإِنَّا

نوح عليه السلام يسمع القرآن يقول عنه: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصْوَعَهُمْ فِي عَازَاتِهِمْ وَأَسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ﴿١١﴾ نوح: ٥ - ١١ الآيات، إلى أن قال: ﴿رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْني وَأَتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾ نوح: ٢١، إلى أن قال: ﴿لَا نَذَرُ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِنْ تَذَرَهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾ نوح: ٢٦ - ٢٧، ونجد نفس المسلك تأخذه عاد عندما تتوجه صراحة لنبيها "هود" عليه السلام الذي دعاهم إلى الإيمان بالله والعمل الصالح ﴿قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَضْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ ﴿١٣٦﴾ الشعراء: ١٣٦.

ومن الأمثال السائرة بين الناس كثيرا، ولكنهم عن حقيقة معناه غافلون قولهم: "على من تقرأ زبورك يا داود".

عَلَىٰ أَثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ ﴿ الزخرف: ٢٣.

ولنا أن نتساءل بعد ذلك هل جعل الخطاب المسجدي عندنا مقاومة الاختلالات وتخفيف يناييعها من مهامه الأساسية؟ وهل الكيفية التي يتناول بها مختلف القضايا المتعلقة بهذا الموضوع كفيلة بأن تعيد المياه إلى مجاريها؟ وهل استطاع هذا الخطاب أن يجعل المصلين ينقلون ما يدعون إليه في المساجد من القيم والسلوك إلى البيوت وإلى الأسواق والشوارع وأماكن العمل وغيرها، وهل استطاع أن يؤثر في شبكة العلاقات الاجتماعية ويجعلها تلتزم بآداب الإسلام. وأخلاقه وتوجيهاته؟ ﴿يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿ الأنفال: ٢٠ - ٢١.

إن كل فعل أو سلوك لا ينحو نحو تقليص تأثير الاختلالات وتخفيف أثرها في المجتمع والتخفيف من وطأتها، يعتبر عملاً يدفع إلى تعميقها في السلوك

الاجتماعي العام، وهو ما يُفضي إلى إحداث التصدعات والتشققات في الجدار الاجتماعي، أو يؤدي إلى إحداث حفر في سفينة المجتمع على حد وصف رسول الله ﷺ لركاب السفينة سواء منهم الراكبون في الأعلى أو الراكبون في الأسفل. لا تختلف اليوم في أن من المهام الأساسية للخطاب المسجدي هو مقاومة الاختلالات المادية والأدبية، وسد الثقب والشغرات ومنع التصدعات والتشققات، وإلا عن أي إصلاح نتحدثون؟!

تلك إذن هي بعض العيوب الذاتية التي يتسم بها الخطاب المسجدي اليوم، وهي كما تلاحظون ما هي إلا ملاحظات عابرة، ولكن التعمق في إبرازها يتطلب منا أن نخصص لها وقتاً أكثر من أجل شرحها وتوضيحها بأمثلة لعلنا نقف على بعض جوانب دائنا، والوقوف على الداء طريق للوصول إلى وصف الدواء.